

جوانب إنسانية

عند الرصافي

١

تردد على الأفواه وفي كتابات النقاد كلمة « الإنسانية » غير محدودة الدلالة ، ولا محصورة الفكرة ، فقد تدل على كل ما يقترن في أذهاننا من سمو بالحياة البشرية ، وأن نجتاز كل العقبات التي تقف في طريقها ، بحيث تعم في العالم وحدة إنسانية لا تكييفها حواجز من وطن أو جنس ، ولا تحدها عصبية من دين وغير دين .

وبذلك تصبح الإنسانية نزعة عالمية ، يريد أصحابها أن تعم العالم كله روابط واحدة ، فلا أبيض ولا أسود ، ولا شرقي ولا غربي ، ولا مسلم ولا مسيحي ، فالعالم يهدف إلى الاتحاد . كان أسرة ، ثم كان قبيلة ، ثم أصبح أمة ، ولا بُد أن تتلاصق وحداته ، فتذوب كل عنصرية ، وتذوب كل عصبية ، ويصبح الناس إخوة في نطاق واسع من الإنسانية ، لا تحده غير السماء والأرض .

وينساق أصحاب هذه النزعة في الدعوة إلى الخير ، وتراهم يكتفون من بكاء الإنسانية لأن قوافلها ضلت طريقها ، وهي تدفع ثمن هذا الضلال بما تنحره من أبنائها على مذبح الحروب ، وما تسفكه من دماهم ، ولا ريب في أن هذه مثالية ، وأنها تحلق في خيال بعيد لعالم لا يمكن أن يتحقق في الأرض ، وفي أنفس الناس من المطاعم ومن نزعات الأنانية ما يغري بعض الأمم أن تكون لها بقاع الأرض من دون أخواتها وجيرانها .

وما أشبه هذه النزعة بنزعة التصوف ، فكلاهما حلم وخيال ، يحلم الصوفي

بربه ، ويحلم الإنسانى بعالم لا يمكن أن يراه ، ومع ذلك فهو يكثر من التفكير فيه والتعلق به ، حتى يظنه حقيقة من الممكن أن تقع تحت بصره ، فما يزال ييبب بالناس والأمم أن يقفوا ليتأملوا معه ، فيبصروا العالم الحق ، ويفرؤا إليه من عالمهم ، عالم الآلة والشر .

وهو حلم صوفى جميل ترتفع أثناءه كلمة النزعة الإنسانية ، وتهم في أجواء صحرية غامضة . وقد تسقط من هذه الأجواء وتقرّب من أرضنا ، بل قل تنزل فيها لتدل دلالات أخرى يفهمها الإنسان الواقعى الذى لا يعيش فى عالم الرؤى : وإنما يعيش فى دنيا الواقع المحسوس . ومن الدلالات ما يرتبط أشد الارتباط بالدلالة المثالية السابقة مع ارتباطه بالحقيقة الملموسة ، ونقصد فكرة الرحمة بالضعيف ومواساة العاجز الفقير ، فهذه الفكرة إنما يريد أصحابها أن يرتقوا بحياتنا البشرية ، فيعم بين الناس فيها دَفْعُ الضرر عن إخوانهم ، وأن يتعاطفوا معهم تعاطف الأخ مع أخيه ، فلا يكون هناك بائس ولا بؤس ، ولا حاقد ولا حقد ، وإنما يكون التآزر والتعاون بين الناس حتى كأنهم جسد واحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

ومن الممكن أن ندخل فى هذه الدلالة الإنسانية محبة الإنسان لوطنه ، إذ تقوم هذه المحبة فى بعض جوانبها على الاعتزاز بالمواطن ؛ وأن تكون له الحقوق الإنسانية المشروعة من حرية وغير حرية . وأيهما أشد وقعاً على النفس أن ترى شخصاً متألماً ، قد سجن كالطائر فى قفص من الفقر والحرمان ، أو ترى شعباً قد شدَّ بأسره فى أغلال الذل والهوان ، شدته أمة مستعمرة لا ترى فى مرآة الأرض سوى نفسها وطموحها وآمالها وغايات أهلها ؟ ألا إن هذه المرآة الكاذبة ينبغى أن تحطم ، وأن يسرد الشعب الأسير حقوقه التى أعطاه الله لإياها .

وقد تدل كلمة الإنسانية دلالة واقعية مطلقة ، إذ يُراد بها أن يصور صاحبها الإنسان بكل ما فيه من نقائص ومعائب . فهو إنسانى النزعة ، أى أن مساوى الإنسانية ومحاسنها تتضح فيه وفى أدبه ، بمعنى أنه لا يخفيها ، بل يجليها فى أتم معانيها .

وهناك دلالة أخرى تقابل هذه الدلالة وتناقضها ، إذ تدل الكلمة على الإيمان بالإنسان وعقله إيماناً لا حد له ، فالشخص الذى يؤمن بالملكات الإنسانية ، ولا يعتقد فيها وراء المنظور الملموس منها شخص إنسانى التزعة ، لا يعتقد بقوى خارقة وراء عالمه الإنسانى .

ونرى من ذلك أن كلمة « الإنسانية » واسعة الدلالة ، وأن من الممكن أن تُفهم بمعان كثيرة ، غير أن المعتاد بين النقاد ، وخاصة إذا تحدثوا فى الشعر والنثر ، أن يقفوا منها عند الدالتين الأولى والثانية ، وقلما فكروا فى دلالات أخرى .

٢

ولم يكن شىء من هاتين الدالتين الموصفتين يقع فى شعرنا القديم والوسيط إلا فى الندرة ، سوى ما عرف به أبو العلاء فى لزومياته ، إذ نجد عنده نزعة إنسانية كاملة ، أما من عاشوا حوله ومن قبله وبعده ، فقلما تجاوزوا أنفسهم ، إذ غلبت عليهم العواطف الفردية الذاتية ، ولم ينظروا فى أمر من أمور الجماعة ، ولا فى أزمة من أزماتها .

حتى إذا كنا فى العصر الحديث واعتدنا التفكير فى شئوننا السياسية والاجتماعية أخذنا وأخذ شعراؤنا معنا يفكرون فى جوانب النقص الشائعة فى حياتنا . وبذلك انفك الشعر من القيود الذاتية ، وأخذ يسبح فى أجواء جديدة ، بعضها سياسى وبعضها اجتماعى ، وهى أجواء لونه ألوانا حديثة ، فلم تعد الألوان القديمة التى تنبع من مزاج الشاعر هى كل ما يلون شعره ، بل امتزجت بها ألوان أخرى ترجع فى جملتها إلى أن شعراءنا وجدوا شعوبهم قد أنكروا عليها الأوروبيون حقوقها السياسية وكل ما يمت إلى الحرية والكرامة بصلة فهبوا فى مشارق العالم العربى ومغاربه ينادون بحق شعوبهم فى الحياة الشريفة

العزيزة الحرة الكريمة ، ونادى معهم الرصافي :

إذا لم يعش "حرراً بموطنه الفتى قَسَمَ الفتى مَيِّتاً وموطنه قبرا
أحريسي إني اتخذتك قبلة" أوجه وجهي كل يوم لها عَشْرًا
وأمسك منها الركنَ مستلماً له وفي ركنها استبدلت بالحجر الحجر

فهو يرى أن الحياة ليست شيئاً بدون الحرية ، وهو رأى اعتنقه كل شعرائنا في العصر الحديث وتعلقوا به ؛ إذ وجدوا فيه حقهم الإنساني الأول ، بل حق الجماعة التي عاشوا معها ، وأخلصوا لها وتغنوا آلامها .

ونظر فريق منهم فرأوا في هذه الجماعة ضرباً من العنصرية الدينية ، فألحوا على هدمه ونقض حائطه الذي يفصل بين أبناء الأمة الواحدة ، وخاصة بين المسلمين والمسيحيين لما بينهم من الصلات الوطنية ، وما ينبغي أن يسود بينهم من الإخاء والمحبة ، وفي ذلك يقول الرصافي :

أما أن تُنسَى من القوم أضغانُ فيُبْنَى على أسِّ المؤاخاة ببيانُ
أما أن يُرمى التخاذل جانباً فتكسبَ عزّاً بالتناصر أوطان
علام التعادى لا اختلاف ديانة وإن التعادى في الديانة عدوان
وما ضَرَّ لو كان التعاون ديننا فتعمر بلدانُ وتأمُن قُطَّان
إذا جمعتمنا وحدة وطنية فاذا علينا أن تعدد أديان
إذا القوم عمتهم أمور ثلاثة لسانُ وأوطان وباللَّه إيمان
فأى اعتقاد مانعٌ من أخوة بها قال إنجيلٌ كما قال قرآن
كتابان لم يُتزلهما الله ربنا على رُسْله إلا ليسعد إنسان
فن قام باسم الدين يدعو مفرقا فدعواه في أصل الديانة بهتان
أنشقى بأمر الدين وهو سعادة ؟ إذن فاتباع الدين يا قومُ خسران

ونجد لهذه الدعوة نظائر عند شعراء مصر والشام ، إذ أخذ الشعراء ينادون

بالتححر من عبء الاختلافات الدينية وما يبذره المفسدون من بذور الشقاق بين عناصر الأمة باسم الدين ، والدين في جوهره براء مما يبذرون ويفسدون ، إذ يقوم عند المسلمين والمسيحيين جميعاً على التسامح .

وعلى هذا النحو بعثت حياتنا السياسية في العصر الحديث مشاعر جديدة في نفوس شعرائنا لم يكن أسلافهم يألّفونها ، ولم تكن ينابيعها تتفجر في قلوبهم لسبب بسيط ، وهو أن الشعراء لم يكونوا يفكرون فيما حولهم ، ولم تكن مشاكل المجتمع ولا مشاكل البشرية ميداناً لأقلامهم . فلما خرجنا من عصورنا الوسطى ووجدنا أنفسنا بإزاء مشاكل إنسانية مختلفة ، أخذ شعراؤنا يوجهون إليها نشاطهم الفكري ، وأخذت تعمل في صميم قلوبهم .

فإذا شاعرنا لا يعيش لنفسه ، وإنما يعيش لمواطنيه ، وقد يمتد بصره إلى مثل أعلى فيعيش للإنسانية كلها ، وهو في ذلك جميعه ينفصل من عالم الذاتية والفردية ، ويلحق بمحيط أوسع يتصل فيه بالناس ممن حوله ومن هم بعيدون عنه . وحرى بالشاعر أن يفكر أول ما يفكر فيمن يعيش معهم وفي آلامهم وكوارثهم وأن يهب لهم شعره ، وأن يجعله منفذاً للتعبير عن حقوقهم الإنسانية من جهة ، وكابحاً لما يراه فيهم من معائب من جهة أخرى . والرصافي من هذه الناحية يكتظ قلبه بمشاعر إنسانية رقيقة نراها ماثلة في كل جانب من ديوانه إذ يدعو دعوة واسعة إلى التعاطف الإنساني والبر بالفقراء والمعوزين ، وأيضاً فإنه يدعو إلى التخلي عن كل ما يشين أخلاق قومه وعقولهم ، ولعله من أجل ذلك كان يشيد دائماً بالعلم وإنشاء المعاهد والمدارس كما كان يدعو إلى إعطاء المرأة حقوقها ، فهو يريد أن يزيل كل الحواجز التي تعوق شعبه عن النهوض والوقوف على قدميه بين شعوب العالم . ويتراءى في تضاعيف ذلك هجوم واسع على علل شعبه الاجتماعية . فمن ذلك أن نراه يقف في وجه الطلاق والاتساع به ، وقصيدته « المطلقة » من خير القصائد التي تصور عيوب هذه المشكلة . وخاصة حين تطلق المرأة بدون ذنب جنته يدها . يقول واصفاً لحالها ، ناعياً هذه السوء الاجتماعية :

بدت كالشمس يحضنها الغروبُ فتاةٌ راعٍ نضرتها الشحوبُ

منزهة عن الفحشاء خَوْدٌ^(١) من الخفريات آتسةٌ عرُوبٌ^(٢)
وتبلى دون عِفَّتِهَا العيوبُ وتستجدُّ بها المعالي^(٣)
صفا ماءُ الشبابِ بوجنتيها ولكن الشوائبَ أدركته
حليلةٌ طيبِ الأعراقِ زالت رعى ورعتُ فلم تر قطَّ منه
فغاضبِ زوجتها الخلطاءُ يوما فأقسم بالطلاق لم يمينا
وظلقها على جهل ثلاثاً وأفتى بالطلاق طلاقَ بَتٍّ^(٤)
فبانَتْ عنه لم تأت الدنايا فظلت وهى باكية تنادى
لماذا يا لبيبُ صرَّمتَ حبلى أَيْنُ ذنبي إلى فدتك نفسى
لئن فارقتنى وصددت عني فأطرق رأسه خجلا وأغضى
لبيةً أقصرى عني فأنى وما والله هجرُك باختيارى
فليس يزول حبك من فؤادى

(١) العروب : المرأة المتحبة إلى زوجها .

(٢) النوار : المرأة النفور من الريبة .

(٣) الألية : القمم . الحوب : الذنب والإثم .

(٤) الطلاق البت : طلاق البائن بدون رجعة .

والرصافي يطيل من المحاورة بين الزوجين ليرينا آفة هذا الطلاق
وكبيرَ هذا الخطأ الذي يقع فيه بعض أصحاب الفتوى من رجال الدين ، إذ
يطلق بعضهم باليمين اللغو يجرى على لسان الزوج دون أن يقصده قصداً ،
فتنصمُ عروّةُ زواج ، وثقتة حبة وعفة ، وما يزال حتى يقول :

ألا قُلْ في الطلاق لموقعيه بما في الشرع ليس له وجوبُ
غلوتم في ديانتم غلوّاً يضيق ببعضه الشرعُ الرحيبُ
أراد الله تيسيراً وأنتم من التعسير عندكمُ ضروب
وقد حلتْ بأمتم كروبٌ لكم فيهن لا لهم الذنوب
وهي حبلُ الزواج ورقٌ حتى يكاد إذا نفخت له يذوب

وهو في كل ذلك تساقط نفسه حسرات لهذه المطلقة ، وإنه ليدعو أن
تقف هذه العادة بل إنه يصرخ في وجوه الفقهاء ورجال الدين أن يبطلوها
إبطالا ويلغوها إلقاء . وتتردد مثل هذه الصيحة الإنسانية في كثير من جوانب
الديوان .

٣

وكان الرصافي حساساً شديد الحساسية رقيق الشعور ؛ فكاد لا يترك منظراً
مؤثراً لمنكود أو منكوب إلا رسمه بريشته رسماً حزيناً يبعث الشجا والأمل في
النفس ، وكان يعرف كيف يصف ما انطوى عليه قلب المكروب من أفكار
وآلام . وقصيدته « الأرملة المرضعة » من خير الأدلة على ما نزع ، يقول :

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها تمشى وقد أثقل الإملاقُ ممشأها
أثوابها رثةٌ والرجلُ حافيةٌ والدمعُ تذرّفه في الخلد عيناها
بكت من الفقر فاحمرت مدامعها واصفرّت كالأورس من جوعٍ محيأها

فالدهر من بعده بالفقر أشقاها
 والهم أنحلها والغم أضناها
 والبؤس مرآه مقرونٌ بمرآها
 فانشق أسفلها وانشق أعلاها
 حتى بدا من شقوق الثوب جنبها
 كأنه عقربٌ شالت زباناها
 كالغصن في الريح واصطكت ثناياها
 حملا على الصدر مدعوماً بيمنها
 في العين مَنشرها مَنججٌ ومطواها
 تشكو إلى ربها أوصابَ دنياها
 هدى الرضيعة وارحمي وإياها
 كرهة الروض فقد الغيث أظماها
 والأم ساهرةٌ تبكي لمبكاها
 تبكي وتفتح لي من جوعها فاها
 وبيتٌ من حولها في الليل أرهاها
 ولست أفهم منها كنهَ شكواها
 وموت والدها باليتم نناها

مات الذي كان يحميها ويسعدنا
 الموتُ أفجعها والفقر أوجعها
 فنظرتُ الحزن مشهودٌ بمنظرها
 كرتُ الجديدين قد أبلى عباها
 ومزق الدهر ، ويل الدهر ، مثرها
 تمشي بأطمارها والبرد يلسعها
 حتى غدا جسمها بالبرد مرتجفا
 تمشي وتحمل باليسرى وليدتها
 قد قمطتها بأهدامٍ ممزقة
 ما أنس لا أنس أنى كنت أجمعها
 تقول يارب ! لا تترك بلا لبن
 يارب ! ما حيلتي فيها وقد ذبلت
 ما بالها وهي طول الليل باكية
 يكاد ينقد قلبى حين أنظرها
 ويلمها طفلةً باتت مروعة
 تبكى لتشكو من داء ألم بها
 كانت مصيبتها بالفقر واحدة

والقصيدة لوحة رائعة لأرملة فقيرة ، تمزقت عليها ثيابها ، ولم يعد لها
 ما يحميها من البرد بل من العرى ، ولم يعد في ثديها ما ترضع به وليدها .
 بالبؤس الحياة ! ويا لمرارتها في فمها بل في فم الرصافي الذي ذهب يجلو علينا
 هذه الصورة الكئيبة ! وقد تعاون الدهر والفقر في إخراجها على شاكلة تنقد
 لها القلوب وتحس ألما ولوعة ، بل تحس لذعاً وكيّاً . ويمضي فيذكر أنه
 أعانها ببعض دراهم يملكها ، فأنت ، وأجهشت بالبكاء ، ونفثت زفرات من

جوانحها . ثم قبلت ما أعطاها شاكرة مثنية على خلقه ، متمنية أن يعم في الناس حيسٌ مثل حسه وعطف مثل عطفه . إذن لم تكن هناك أرملة تشكوشكواها وتسوّد الدنيا في عينها وتظلم على نحو ما اسودت أمامها وأظلمت .

ويظهر أن نفس الرصافي كانت تنطوى على كثير من المروءة والحنان والشفقة ، فكان دائم التفكير في هذه الطبقة الشقية المحرومة التي نبذها المجتمع ، فلم يُعرها عنايته ولم يولها اهتمامه ، حتى النقود القليلة ضنّ بها عليها . وتحول الرصافي إلى ما يشبه بوقاً ، فهو ينفخ في الناس لعلهم يبصرون ما تحت أعينهم من آلام مشجية وأوجاع مضية . واستعان في ذلك بمواقف مختلفة ، تارة يختار أرملة ترضع طفلاً ولا تجد كساء ولا قوتا يدرّ لها لبناً ، وإنما تجد الشقاء والعذاب والمسغبة : وتارة أخرى نراه يختار أختاً لها فقدت زوجها وكبر يتيمها ، وطلع عليهما العيد ، وأطل صباحه وكأنه وجه نحس يرسل عليهما شواظاً من البؤس والحزن . وينظران فيصيران الناس من حولهما فرحين مسرورين يدقون طبول العيد ، أما هما فكسيران تعسان بيكيان :

وَحَقَّ لَسَلْمَى أَنْ تَنُوحَ فَإِنَّمَا مِنْ الْعَيْشِ سَمًا نَاعِمًا تَتَجَرَّعُ

وينادى في قومه أن أغيشوهما ، وكفى ما ذقنا في بلادنا من الظلم والهوان ، وما يزال يستثير من حوله حتى يكتبوا لئلا هذا اليتيم وأمه .

ولم يقف عند أرامل المسلمين ويتاماهم فحسب ، فقد ذهب يشارك يتامى الأرمن وأراملهم يؤسهم حين أنزل عليهم الترك جام غضبهم في فتنة « أطنة » ، وَصَوَّرَ ذَلِكَ فَأَبْدَعَ فِي تَصْوِيرِهِ ، إِذْ يَقُولُ فِي قَصِيدَةِ « أُمِّ الْيَتِيمِ » :

| | |
|----------------------------|------------------------------|
| رمت مسمعى ليلاً بأنة مؤلمٍ | فألقنت فؤادى بين أنياب ضيغمِ |
| وباتت تولى في الظلام أنبها | وبت لها مرمى بنهشة أرقمِ |
| إذا بعثت لي أنة عن توجعِ | بعثت إليها أنة عن ترحمِ |
| تقطع في الليل الأنين كأنها | تقطع أحشائي بسيف مثلمِ |

وما خفقان النجم إلا لأجلها وما الشهبُ إلا أدمعُ النجم ترتبي
لقد تركتني موجع القلب ساهرا أخنأ مدمع جارٍ ورأسٍ مهوّم

ثم يصف بينها ، وكيف أعولت فيه النحوس ، وألقت به الأيام أثقال
بؤسها ، ويقول إنه دخل في الصباح البيت ، ليستطلع نبأ هذا الأئين ويعرف
مبعثه ومآتاه ، فرأى جسماً ضعيفاً نهكته همومه ، وحوله صغير لم يجاوز الخمس
من عمره ، يبكي من ألم الجوع ، وهي لا تجوده إلا بالدموع ، فلما أحس
بالشاعر توجه إلى أمه مخاطباً :

سلى ذا الفتى يأمُ أين مضى أبي وهل هو يأتينا مساءً بمطعمٍ
فقال له والعين تجرى غروبها وأنفاسها يقذفن شعلهً مُضرمٍ
أبوك ترامت فيه سفرةٌ راحلٍ إلى الموت لا يرُجى له يومٌ مُقَدَمٍ
على حين ثارت للنوائب ثورةٌ أتت عن حزازاتٍ إلى الدين تنتمي
فقامت بها بين الديار مذابحٌ تخوِّض منها الأرمنيون بالدم
ولولاك لا اخترت الحِمَامَ تخلصاً بنفسى من أتعب عيش مذمَمٍ
فأنت الذي أحررت أمك مرّياً عن الموت أن يودى بأملكٍ مرّيمٍ
أمريم ! مهلاً بعض ما تذكرينه فإنك ترمين الفؤاد بأسئهم
أمريم ! إن الله لا شك ناقدٌ من القوم في قتل النفوس المحرّم
فليس بدينٍ كلُّ ما يفعلونه ولكنه جهلٌ وسوءٌ تفهم
لئن ملثوا الأرض الفضاءَ جرائمًا فهم أجرموا والدين ليس بمجرم
ولكنهم في جُحجَح ليلٍ من العمى تمشوا بمطموس العلامٍ مبهم
وظللتُ لها أبكى بعينٍ قريحَةٍ جرت من مآقيها عصارةٌ عندَمٍ
بكيّتُ وما أدري أبكى تضجراً من القوم أم أبكى لشِقْوَةِ مرّيم

وهذه القصيدة تتيح لنا أن نستشف من خلالها اتساع العنصر الإنساني في

شعر الرصافي ، فهو يتنازل عن حواجز الدين واللغة ، ليقف في صف الأرمين ، وكأنه يؤمن بوجود تحرير الروح وإطلاق سراحتها من قيود التعصب الديني . وهو في ذلك يقدم الجنس الإنساني على القواصل المحلية التي تفصل بين أفرادها ، وتفرق بين وحداته ، أو قل إنه كان يتمنى أن تتحقق وحدة هذا الجنس على أسس من الأخوة والتعاطف ، فلا يكون هناك أرمي وتركي بل يكون هناك الوثام والتجانس التام بين الأجناس والأمم والشعوب .

وما كان شيء يؤدي نفسه مثل الفقر والعوز ، وأن يشبع الغنى ويلبس الإستبرق والحريز ، ويجوع الفقير ويعرّى ، وإن لبس لم يلبس إلا ثوباً أخلاقاً مرمقاً ، وما شبع الغنى وثيابه إلا من عرق الفقير ومن جهده وكده وكفاحه ، يقول :

أرى كل ذي فقر لذي كل ذي غنى أجيرا له مستخدما في عقاره
ولم يعطه إلا اليسير وإنما على كده قامت صروحُ يساره

وكانه يرى الأغنياء جميعاً تعاونوا على نهب حقوق الفقراء واغتصاب ما كسبته أيديهم ، وإنهم لينون قصورهم على كواهلهم ، ويقبضون مسراتهم وملذاتهم على أحزانهم وآلامهم ، وما يؤس البائس إلا جنابة الغنى ، وإلا ثمرة طمعه وحشعه ، وما يحوزه لنفسه دون أخيه الفقير .

وكثيراً ما اقترن الفقر في ذهن الرصافي بالسقام والمرض ، وهو يرى الأول مؤذناً بالثاني مؤهلاً له ، معداً للتزول في أوصابه وأوجاعه . وقصيدته «الفقر والسقام» من أروع الأمثلة لهذا القران النكد المشتموم الطالع ؛ وفيها حكي قصة رجل معسر يسمى بشيراً كان يعمل أجيراً ، ويكسب لنفسه قوتاً يسيراً ، شاكراً لربه راجياً حسن المآب ، وكان يعول أختاً له يطعمها من كده فاعتراه داء المفاصل حتى عاقه عن العمل والاكتساب ، وأنفق كل ما ملكت يدها ، بل كل ما ربحته أخته فاطمة من غزلها قبل أن ينزل به الداء . وهنا نراه يناجها أن تمرضه ، وتحرضه على العمل ! ولم تلبث أخته أن سمعت إلى جارتها

فشكت حالتها وحال أخيها ، فأعانتها ببعض ما سَدَّأَ به رمقهما ، وألح المرض والفقر على بشير ، وما زالوا به حتى فاضت روحه في ليلة عاصفة من ليالي الشتاء . فبكت أخته وأعولت وولولت ، ولم تجد ما تكفنه به ، فظلُّ مَلقَى إلى أوان الزوال ، إذ جاد شخص عليه بعد سؤال بريال ونصف ريال ، فحُمِلَ إلى قبره على نعش أمثاله بدون ستر ولا زينة . ثم يروى الرصافي أنه مضى على موت بشير عامان ، وكان يمشي « بشارع الميدان » فأبصر نعشاً ، نُقش البؤس عليه نقشاً ، فسار وراءه مع السائرين ، فلما دفنوا البائس الفقير وقف يسأل من الذي دُفِنَ اليوم ؟ فتصدى له فتى :

قال : إن الدفينَ أختُ بشيرِ أخت ذلك المسكين ذاك الفقير
بقيت بعده بعيشٍ عسيرِ وبطرفٍ بالكِ وقلبٍ كسيرِ
وقضت مثله بداء القلابِ

قلت أقصرُ عن الكلامِ فحسبي منك هذا فقد تزلزل قلبي
ثم ناجيتُ والضراعةُ ثوبي رَبِّ رحماك رب رحماك ربي
رَبِّ رشداً إلى طريق الصوابِ

رب إن العباد أضعفُ أن لا يجدوا منك رَبِّ عفا وفضلا
فاعف عن أخذهم وإن كان عدلا أنتَ ياربُّ أنتَ بالعفو أولى
منك بالأخذ والجزا والعقابِ

قد وردنا والأرضُ للعيش حوضُ واحدٌ كلنا لنا فيه حَوْضُ
فلماذا به مشوبٌ ومحضُ عظمتُ حكمةُ الإله فبعضُ
في نعيمٍ وبعضنا في عذابِ

أيها الأغنياء كم قد ظلمتم نَعَمَ اللهُ حيثُ ما إن رحمتم

سهر البائسون جوعاً ونعمت
بهناءٍ من بعد ما قد طعمتم
من طعام منوعٍ وشراب

كم بذلتم أموالكم في الملاهي وركبتكم بها متون السفاهِ
وبخلتم منها بحق الإله أيها الموسرون بعضَ انتباهِ
أفتدرون أنكم في تباب

وهذه النهاية للقصيدة أو للقصة توضح مدى ما شغل به الرصافي نفسه من التفكير في الإنسانية وسبل الخير والشر التي يسلكها بنو الإنسان ، فغنى وفقير ، وسعيد وشقى . وإنه ليفزع إلى ربه يطلب منه الرحمة بالبشر ، حتى في الموت والجزاء ، وإنه ليتساءل فيم هذا الاختلاف بين الناس ؟ ولماذا كان بعضهم في نعيم وبعضهم في عذاب ؟ . وإن ذلك ليشقى الرصافي ، بل لكأنه هو الشقى المحروم الذي ينعاه ، فالحياة مظلمة من حوله ، وروحه في قلق دائم تريد للناس جميعاً أن يكونوا سعداء ، وأن يزايل الشقاء البشر كلهم من مسلمين وغير مسلمين ، وهو لذلك يكثر من الأئين ، ومن دعوة الأغنياء إلى أن يمسخوا على يؤس البائسين . ولعل في ذلك كله ما يدل على أنه كان يحلم للناس وخاصة من مواطنيه بعالم سعيد ، فقد عاش يتغنى آلام التعساء المظلومين والأشقياء المحرومين .